

الشاعر الأديب
السيد عبد الرحمن حجّي
كما عرفته

أبو بكر القادري

ترجع معرفتي بالشاعر الأديب عبد الرحمن حجّي إلى أواخر العشرينات، وأنا تلميذ بمدرسة «درب لعلو» الحرة، والتي كانت تعرف بمدرسة سيدي الهاشمي الطالب، لقد دخل ذات يوم إلى هذه المدرسة، وهو متأبط حزمة من أوراق، كانت عبارة عن قصيدة شعرية، نظمها وطبعها بإحدى المطابع، ثم صار يوزعها على بعض معارفه وأصدقائه الأساتيد.

كان عنوان تلك القصيدة : (كشف النقاب، عن أخلاق الشباب) وكان

مطلعها :

شعور الفكر في الأشعار يجلى فيطرب سامعيه حين يتلى
ويصدع بالحقيقة إن تبدى ومنه الحكمة العليا تملى
يرضاه جميع الناس رأيا ويحمد إن بصدق قد تحلى
إلى أن يقول :

ترأت لي الحقائق من بعيد خيالاً بالبلاغة قد تجلى
أرى خلق الشباب قد اضمحلا وسوء الخلق قد حهم المحلى
قد القوا في المخازي كل دلو فجاءوا بالغواية ليس إلا
وراشوا في كل التشوق كل سهم وقالوا ينبغي أن نستقلا
وجالوا في ميادين الملاهي وجروا من رداء الفسق ذيلا
يظنون التمدن في ثياب مزخرفة وصقل الوجه صقلا

إلى آخر القصيدة البليغة المعبرة عن مرحلة من المراحل التي كان يحتازها الشباب في ذلك الظرف، والتي كانت تتصارع فيه الأفكار بين الناهضين السلفيين المتطلعين إلى النهوض من الكبوة، مع المحافظة على الأصول والقيم التي بنى عليها المجتمع المغربي المسلم، وبين بعض من كانوا يسمون أنفسهم بالعصريين الذين تعلقوا بمظاهر الحياة العصرية المقلدة لحياة الغربيين دون النفوذ إلى عمقها العلمي الحضاري، ودون التفات إلى ما تجب المحافظة عليه من القيم المجتمعية، لقد أتيح لي أن أطلع على القصيدة المذكورة، أو بالأحرى أتذوق بعض معاني أبياتها، لأنني لم أكن في ذلك الوقت مؤهلاً التأهيل الكافي لتذوق غرر الشعر، وإن كنت أخذت أخذا ببعض معاني أبياتها، ولربما كان ذلك مني، لأنني كنت أتهياً معرفياً، لأسير مع الناهضين السلفيين.

إن اطلاعي على القصيدة وقراءتي لها، أتيا عفواً، لأنه لم يكن من الممكن أن يقدم لي إذ ذاك نسخة منها، وأنا لازلت في مرحلة التعليم الابتدائي الحر، وسني في الغالب لم يتجاوز الثانية عشرة، ولكن الذي هياً لي الاطلاع على القصيدة، أن الشاعر أهدى نسخة منها إلى أخي وأستاذي مولاي الشريف القادري الذي كنت أدرس عليه إذ ذاك بالمدرسة المذكورة، فأتيح لي الاطلاع عليها، وقرأتها، واستظهر بعض أبياتها التي كانت مثار إعجابي.

كان ذلك أول يوم، تعرفت فيه من بعيد على الشاعر عبد الرحمن حجي، ومضت أيام وشهور وأعوام، كنت أسمع الحديث عن عبد الرحمن حجي كشاعر بليغ، ولغوي مطلع، ونحوي لا يقبل اللحن في الكلام، ولا يستسيغه، ولا يتهاون في انتقاد اللحانين والهجوم عليهم، كما كنت أسمع أن عبد الرحمن حجي من السابقين الذي استضاءت نفوسهم، وتنورت أفكارهم، وظهرت وطنيتهم مبكرة أوائل العشرينات، عندما قام يتضامن مع بعض رجالات الوطنية إذ ذاك، ومنهم القائد الصنديد السيد عبد الله بنسعيد الذي أبان عن وطنيته وغيرته في كثير من الظروف، وخصوصاً عندما قررت سلطات الحماية فرض ضريبة على بعض التجار الصغار، والتي كانت تسمى بضريبة «الكياب» والتي كان لفرضها الأثر السيء على المواطنين جميعاً، وبالأخص على الطبقة المتوسطة من التجار. فلقد وقعت تجمعات، وقدمت عرائض وشكايات ضد هذه الضريبة، وتولى أمر هذه الشكايات والتظلمات، شخصيات سلاوية ورباطية، كان من حملتهم القائد عبد الله بنسعيد والحاج بنعيسى لعلو من «سلا» والحاج بوبكر بن الكورة والحاج والبحراوي من الرباط، فاتخذت سلطات الحماية قراراً بإبعاد هؤلاء، ونفيهم إلى جهات مختلفة في المغرب، وارتاع عبد الرحمن حجي لهذا الإبعاد والنفي، فقام

يدعو إلى التضامن مع المبعدين بإقفال المتاجر في الأسواق، والتقدم بالشكاية إلى المسؤولين، والدعوة إلى القيام بمظاهرة تولى رئاستها، الأمر الذي دفع السلطات المخزنية لإلقاء القبض عليه.

كانت تلك الفترة، فترة تحولات في العالم العربي، وكانت الحركة الوطنية المصرية في أوج شعلتها، وكان اسم سعد زغلول يرن في الآذان، خصوصا بعد نفيه وإبعاده من قبل السلطات الانجليزية، لأنه طالب بالاستقلال، وجند الشعب المصري للمطالبة بالاستقلال، وكان صدى هذه الحركات الوطنية العربية يصل إلى المغرب، فتتناقله الأفواه، وتحدث الألسن عما هناك من أحداث وإن لم يكن لها مردود عملي بارز إلا في سنة 1930 إثر صدور الظهير البربري، ولا شك أن عبد الرحمن حجي كان متأثرا ومنفعلا لتلك الأحداث، مثل انفعاله وتجاوبه مع أحداث ومقاومة الريفيين تحت زعامة البطل الخالد الذكر عبد الكريم الخطابي، فلدى تغلب القوى الاستعمارية : فرنسية واسبانية عليه، بسبب الخيانات التي طوقته، اضطر رحمه الله إلى الاستسلام إلى القوات الفرنسية التي نفتته إلى جزيرة «رينيون» فكان لاستسلامه وقع عظيم لدى الشاعر عبد الرحمن حجي، فنطق بهذه القصيدة التي عبر فيها عما يحز في صدره من أسى وحزن وألم وقال :

أحق ما به تأتي الجرائد	فقد جزعت له حتى الجوامد
وخرت من تأثره الرواسي	وألقت حملها منه الخرائد
وهل عبد الكريم غدا طريداً	أسيراً عاجزاً عن أن يجالد
وكيف وقد هزرت الأرض رعباً	بسيفك والعدو بذاك شاهد
وذكرك قد سرى بين البرايا	وقدماً للنوادي والمعاهد

أبعد الفوز تنخذل انخذالا تساء به الأقارب والأبعاد
أبعد الفتح تنهزم انهزاما يسردوي الشماتة والحقائد
ألم نخبر بأنك ذو نفوذ ومقدرة على درء المفساد
وقد كنت الخبير بكل كيد فما تخشى الدسائس والمكايد
وتعلم ما تكن لك الأعادي إذا قل المشجع والمساعد
وهل قد كان ذلك محض يرق تراءى خلبا بين المشاهد
قد انضمت لك الأحزاب طوعا وصدت عن سبيلك كل جاحد
وكل قبيلة جاءت جهارا وألقت نحو أمرك بالمقالد
تريد الموت في شرف وعز وأنت لها لدى الهيحاء قائد
أحاقا كنت فيهم مستبدا فذاقوا منك ألوان الشدائد

إنه في هذه القصيدة يفصح عن ألمه الشديد في شبه عتاب، وعن حزنه، وعدم تحمله للصدمة التي وقعت له عندما بلغه خبر الاستسلام، وكأنه يلوم البطل ابن عبد الكريم على استسلامه، وكأنه يريد أن يرجع سبب الهزيمة إلى بعض التصرفات الاستبدادية من الأمير، والذي يعرف الشاعر عبد الرحمن حجي يدرك كل الإدراك أنه كان ينبغي فعل لبعض الأحداث، الانفعال القوي، ولا يكبح سجيته المتأثرة بتلك الأحداث وتشابكها وأسبابها، والمهم عندنا في هذا الموضوع الآن، هو أن الشاعر كان متجاوبا كل التجاوب مع مقاومة البطل ابن عبد الكريم، مؤملا في الانتصار الساحق على الأعداء، حتى إذا وقع الاستسلام، لم تستسغه نفسه، ولم يرتضه طبعه الثائر، ووطنيته الملتهبة، فنطق بالقصيدة التي ذكرنا، ولربما كانت غير تامة، ولربما ضاعت منها بعض الأبيات، فلم يعثر عليها ضمن أوراقه، كما وقع لكثير من القصائد التي تضمنها ديوانه المطبوع.

كان الشاعر عبد الرحمن حجي متدفقا شعورا في العشرينات، وكان يتابع الأحداث الوطنية والأدبية، داعيا إلى النهوض، مستحثا الهمم، ناصحا بني قومه وخصوصا الشباب الحي المتوثب، كي يسير في النهج المستقيم، حاضا على تعاطي العلم والمعرفة، مكررا على الشيوخ الجامدين المستغلين الجاهلين :

فهو يقول في القصيدة تحت عنوان :

يا بلادي

أنفضي يا بلادي عنك الغبارا	واصقلي بالمعارف الأفكارا
سبقتك البلدان في كل شوط	فاستحقت من دونك الإكبارا
كلما تخطو أمة نحو عز	تبعدي عنه خسة واندحارا
وأرى من يريك الخير يدعى	فاسقا ثم فاجرا كفارا
أف هذا جزاء من كان يرجو	لك مجدا وعزة وفخارا
ضللتك الشيوخ أهل البلايا	كي ينالوا من جييك الدينارا
هم من الجهل في مكان أمين	ولهذا يسقونك الأضرارا
لا يكادون يفقهون حديثا	فإذا جودلوا تراهم حيارا
وعن الحق تلتقيهم كسالى	ومن الجبن والخمول سكارا
ضربوا من دون العقول نطاقا	ليظلوا ممتعين استارا
حرموا أن يفكر الناس فيما	هم عليه شناعة وشنارا

ويقول في قصيدة أخرى طويلة، تحت عنوان مجتمعنا :

أفاق زمان المجد بعد هجوم وحلق في الآفاق بعد وقوع
وثاب إلى نهج الصواب ورشده وصح لديه العزم بعد نزوع
وآب إلى الأوطان من بعد غيبة أحاطت به فيها ذئاب شيوع
يكاد بها الإسلام يفقد عزه وتخبو له الأنوار بعد طلوع
ولولا تدابير ابن يوسف أصبحت ممزقة أطرافها بصدوع
وسوف يحقق المكر حقاً بأهله ويجزون من سوء بكل فجيع
إلى أن يقول :

وما الناس في الإسلام إلا كمشط سواسية أشرافهم كوضع
تساوى لدى أحكامه ذو خصاصة وأغنى في ثراء وسيع
ولكن في الأرزاق جدّ تفاوت على قدر مسعاهم وجهد ضليع
وتلقى لديهم في العقول تباينا فذو مرة يسطو على ذي خنوع
ومنهم ضعيف العقل والحوّل خائر ومنهم ذوو رأي وعقل شبيح
ومنهم ذوو عزم وحزم وهمة تسامى بهم نحو المقام الرفيع
ومنهم ذوو نزق وطيش وخفة تهاوى بهم نحو البوار السريع
وأكثرهم خب يخيس بعهده وفسل ابن فسل أو وكيع ابن لكيع

إلى أن يقول في الختام :

فيا رب صرف أمرنا بهداية إلى شاطئ العز المكين الرفيع
وهيئ لنا من أمرنا نهج رشدنا وقدنا إلى حصن الصواب المنيع

ولقد نظم هذه القصيدة الأخيرة في رمضان عام 1379 - ماي سنة 1960.

ولعل نشاطه الوطني، جعل الكثيرين يتعرفون عليه، ولو من بعيد، فلقد قرأت في بعض التعاليق التي كتبت في مقدمة ديوانه الذي طبع مؤخرا، أنه تلقى رسالة من جمعية نجم الشمال الإفريقي بباريس مؤرخة ب 27 غشت سنة 1927 جاء فيها : (الموقر المحترم الشريف سيدي عبد الرحمن حجي، دام محروسا، مواطننا الكريم قد من علينا الاله الكريم، فتسلمنا عنوانكم من أحد الأفاضل المراكشيين الذي أطلعنا على إحساساتكم نحو شعبكم المظلوم، وحبكم المتفاني لوطنكم المغتصب، فكاتبناكم بقصد ربط العلاقات بيننا، وتقول الرسالة في الأخير : وأملنا وطيد، أن تقوم جمعيتنا بالواجب الذي أخذته على عاتقها وأن تتمكن من توحيد قوات الشمال الإفريقي الحية، حتى لا تتكرر أمام أعيننا جناية الريف التي رأينا بمناسبتها مسلمي المغرب والجزائر وتونس، يقاتلون إخوانهم الريفيين الذين لا جرم لهم إلا الذود عن حريتهم المهددة، والدفاع عن بلادهم التي رام الاستعمار اغتصابها.

(الامضاء : الجيلاني شايله، الكاتب العام)

وعندما تأسس النادي الأدبي الاسلامي السلوي في سنة 1927، سر كل السرور بتأسيسه فحيّا الشبان الذين أسسوه قائلا :

أيها الشبان قوموا فلك أجر عظيم
وعلى نيل المعالي أوثقوا العهد ودوموا

شيدوا أركان مجد وابتغوا ذكرا يدوم
 شمروا عن ساق جد كي تنالوا ما تروموا
 واكرعوا من حوض علم حوله الناس تحوم
 انه فوز عظيم إنه ربح جسيم
 واسلكوا نهج وداد فهو خط مستقيم
 كان يعتبر العلم أساس كل تطور وضمن كل نجاح، وسبيل كل سيادة :

إذا ما استقى شعب من العلم وارتوى فبشر بنيه بالسيادة في الحكم
 وصون حماه باعتزاز ورفعته ورد عوادي الدهر أو صولة الخصم
 وإن كان في أحكامه ذا عدالة ففي ذا اجتماع الشمل في أحسن النظم
 وإن ما تصدى للعلوم يبتها ففي ذا ازديان بل خلاص من الوهم
 وقل : قد تحلى بالمعارف والهدى وخلقى سبيل الجهل والفقر والسقم
 وكان لأهليه ارتياح وراحة بمعدلة عنه تزيح أذى الظلم
 لقد غاظه تصرفات بعض الولاة فقال :

تولى الحكم فينا أهل طيش فيرقون المناصب قصد عيش
 تولوها ذوو جاه وجهل ويعلو في ذراها أهل غش
 يعينهم زبانية شداد ذوو مكر وإرهاق وبطش
 أقيموا قصد تنفيذ لحكم بما يهوى أولو جور وطوش⁽¹⁾ (خفة العقل)
 يرعى حكمهم في نص فقه وأنى منهم دار بنجش⁽²⁾
 ويقول في قصيدة ضاع أولها :

فوزير يدعو إلى كل وزر ويخون الأوطان في شد أزر
 ويجاري الأعداء فيما اشتهوو رغبة في إرضائهم دون أجر
 ويح قومي من اعتوار الرزايا وتوالى الخطوب في كل عصر
 ولعل نقده المر لسوء أحوال المجتمع، وتشوفه لضرورة إصلاحه، هو الذي
 جعله يتغنى بضرورة السير في الطريق التي توصل إلى الإصلاح، وليست إلا طريق
 الإصلاح الدستوري، ففي قصيدة جعل عنوانها : مناداة الملك بالدستور قال :

ضل شعب لم يهده دستور إذ لياليه كلها ديجور
 ويلاقي تعثرا في خطاه وعرفته ضلالة وثبور
 وغدا نهبا في يدي حاكميه لايقيه منهم وقاء وسوز
 وإذا قدرت لديهم حياة ساقهم نحوها ملك قدير
 يتنافى في حبههم ويوالي جهده كي يعم هدي ونور
 إذ لديه الضعيف يغدو قويا ويكف اعتدائه الجبير
 وفي قصيدة أخرى يقول :

دستورنا العتيد لجيلنا مفيد
 ونهجه سديد وركنه شديد
 منه سنستفيد ما درسه يفيد
 وقد مضت عهود وما لنا عهود
 وعن الدستور أيضا يقول :

آن للحق أن يقال ويرضى ولوجه الصواب أن يترضى

ومن العدل أن نصادف تأييدا وأمنا كي نشرب العدل محضا
 ذاك شأن الدستور إن كان حقا يفرض العدل والمساواة فرضا
 فيرى الناس في خير نظام شامل كل القطر طولا وعرضا
 وتقص الأظفار من قسوة فيها عيون الأنصاف تقذى وتغضى
 ونرى ظل العدل فيه ظليلا يستوي الناس فيه رفعا وخفضا
 كي يذوق الأنام فيه أمانا واغبتابا به يلذون غمضا
 ذاك إن ألغى في ذويه اطلاعا واضطلاعا يجري أداء وقبضا
 وإذا لم يكن كهذا فحبر سود الصحف بالذي ليس يرضى

لقد أدركته حرفة الأدب، فأراد أن يفر منها، فرار الصحيح من الأجراب،
 ونظرا لأن أخاه الشقيق ووالده المحترم، كانا يتعاطيان التجارة مع الانجليز،
 ويستجلبان إلى المغرب بعض المصنوعات الانجليزية، وبالأخص ما تنتجه شركة
 «الرايد» فإنه أراد أن يحذو حذوهم، ويسير على نهجهم، فسافر إلى العاصمة
 البريطانية «لندن» بقصد تعاطي التجارة، ومكث فيها بضعة أشهر، اطلع على
 أحوالها وأجوائها، وضاقت ذرعا بطقسها وجوها، ولم يطق المقام فيها، فكتب
 قصيدة رائعة جعلها كما قال : بمثابة كتاب مفتوح عام إلى جميع الأصدقاء
 الأدباء، معرفا إياهم بحال لندرة وما يقاسيه فيها قد جاء في هذه القصيدة التي
 بلغت بضعا وخمسين بيتا ما يلي :

ساقني الدهر لامتطاء البحار واقتحام الأخطار في الأسفار
 ورمى بي إلى مكان سحيق رغم أنفي مقيدا باضطرار
 حيث لا علم لي بما سألاقي من شقاء وصدمة وانكسار

واعتلال قد استقر بجسمي مستتبا بأزمة الإعصار
 ليس ينجاب أو تراني ضجيعا بين شقّ موسد الأحجار
 ليس أدري أين المفر بنفسي من رداها ولات حين فرار
 كنت أنقاد للزمان اغترارا بوعود كانت سراب برارى
 لم تكن هكذا ظنوني وحقا ليس ينجو ذو غرة من عثار
 إني في أرض أراها كسجن أو كمنفى لعصبة التوار
 جللت بالسواد حيطانها مذ أسست فهي قطعة من قار
 أو كأن السواد ثوب حداد لبسته على مدى الأعصار
 جوها قاتم عبوس توارت منه خوفا شمس الضحى بستار
 سحب فوقها تروح وتغدو بهواء رطب ونقع مشار
 تستحيل السماء بالليل نارا ودخانا من دكنة واحمرار
 فهي لا ظلمة ترى كظلام لا ولا نورا راق للأبصار
 لا تطل النجوم منها علينا حيل من دونها بسد غبار
 حظها من سر الطبيعة برد قارس منذر بكل بوار
 ليس يكفي لمتقيه لباس أو عقار ولا اصطلاح بنار
 ولديها الزكام أمر لزام شائع بين أهلها بانتشار
 يتوالى دمع السماء عليها بين طل ووابل مدرار
 ولقد تنزل الثلوج ركاما فتعم البلاد بالأضرار
 لو تراها والثلج يسقط فيها قلت زنجية ارتدت بإزار
 أو عجوز شمطاء ذات ارتعاش فوق سطح على شفيرهار

تبدى إلى القريب بأنف مشمخر وشحنة اكفهرار
ذاك والناس ينسلون إليها كل حين من سائر الأقطار
إلى آخر القصيدة التي نظمها بتاريخ 25 رجب عام 1346 الموافق 18 يناير 1928 م.

وهكذا بعدما ضاق ذرعا بمقامه في لندن رجع إلى المغرب، فمكث بضعة أشهر يفكر في الاتجاه الذي يتجه إليه غير التجارة، ونظرا لمحبه للعلم وتعلقه به، واعتباره أساس كل نهضة صحيحة، وتطور منشود، قرر أن يتعاطى مهنة التدريس، فوجد أنها تتلاءم مع ما يطمح إليه.

لقد اشتغل بالتدريس أوائل الثلاثينيات، فعين معلما بمدرسة أبناء الأعيان (بسلا) أولا، ثم انتقل إلى ثانوية مولاي يوسف بالرباط، وأخيرا انتهى به المطاف إلى كلية الآداب ومدرسة المعلمين ومعهد التعريب، كأستاذ للأدب العربي، وفي كل من هذه المؤسسات التعليمية، كان ينال تقدير تلامذته وطلبته، فكانوا يتعلقون به، ويستفيدون من معلوماته المختلفة في ميدان النحو والصرف واللغة، وكان حريصا كل الحرص على أن يختار من غرر الأدب شعرا ونثرا ما يحجب لتلامذته لغتهم العربية، وما يدرّبهم على تذوق أسرارها وبلاغتها، وفي تلقينه للدروس العربية كان شديدا على تلامذته، غير متساهل معهم في القيام بواجباتهم، استدعاء المجريين إلى منزله في مناسبات العطل الأسبوعية والشهرية، ودراسة بعض الكتب الأدبية معهم، وتدريبهم على مطالعتها والاستفادة منها، منبسطا معهم كل الانبساط، متساهلا معهم كل التساهل لدرجة تقديم بعض السيجارات إليهم مع كؤوس الشاي. وفي اهتمامه بالشعر، يتجول مع تلامذته وطلبته في حدائق القديم والحديث فمن زهير بن أبي سلمى وعمر بن أبي ربيعة

والخنساء، إلى الزهاوي والرصافي وأضراب هذين وهؤلاء، وأذكر أن بعض تلامذته الذين كانت لي معهم صداقة، كان ينشد أمامي كثيرا أبياتا من قصيدة للزهاوي جاء في مطلعها :

هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا وأدعيها وإن صاحوا وإن جلبوا

لم يتح لي أن أحضر في أي درس من الدروس التي كان يلقي عبد الرحمن حجي، رغم وجودي في فترة من فترات حياتي معه في مدرسة أبناء الأعيان، فلدى تعيينه معلما بالمدرسة المذكورة، كنت أحضر دروسا في البلاغة على الأستاذ الذي كان قبله، وهو الأستاذ الشيخ زين العابدين بن اعبود، وبدا لي إذ ذاك أن أنخرط رسميا في سلك تلامذة المدرسة، لأتلقى دروسا في اللغة الفرنسية، ولما تعين حجي خلفا لابن اعبود، صار يعطي دروسه في العربية في مختلف الأقسام، ولما رآني في القسم الذي كنت فيه، أعفاني من الإنصات إلى دروسه، باعتبار أن مستواي أعلى منها، وصار يكلفني بتصحيح دفاتر التلاميذ، الذين كانوا معي في القسم، سواء أثناء الدرس، أو حتى بعده، ويمكنني أن أعتبر أن هذا أول تعاون بيني وبينه رحمه الله في مجال التعليم، وفي الوقت نفسه تكوين رابطة تعليمية أو ثقافية بيني وبينه.

لقد تعرفت عليه - كما ذكرت قبلا - وأنا في الثانية عشرة من عمري تقريبا، ولكن تعرفي الحقيقي عليه، لم يقع إلا بعد الثلاثينات، حيث كنت ألتقي وإياه في منزل جده الفقيه «المسطس» الذي كان يسكنه أخوه وصديقي المرحوم سعيد حجي، فلقد كنت أزور السعيد الآونة بعد الأخرى، وكنا نعقد اجتماعات تكاد تكون يومية للمذاكرة والمناقشة والدراسة والتخطيط للعمل الوطني، وأثناء اجتماعاتنا المتوالية والمتعددة، كان يطل علينا، وأحيانا يشار كنا

في مناقشة بعض القضايا التي تثير اهتمامه، وخلال المذاكرة معه، صرت أتعرف إلى أفكاره ونظرياته السياسية، والتي كانت تتم حسبما كان يظهر لي عن تشاؤمه من الأوضاع العربية عموماً، وفقدانه الأمل في أن يحققوا أي هدف من الأهداف التي كانوا يتوخونها في حركاتهم ولعل ذلك راجع إلى خيبات مرت أمامه، لم يستطع العرب أن يبرهنوا خلالها على تبصرهم، واستفادتهم من التجارب والمحن التي مرت أمامهم.

لقد ذكرت أن عبد الرحمن حجي كان من الأوائل الذين تنبه وعيهم السياسي، بعد فرض الحماية على المغرب، فشارك مشاركة عملية في مقاومة بعض التقنيات التي كان يرى فيها أضراراً بالشعب، وتضامن مع بعض الشخصيات الوطنية التي برزت في الميدان، وأنه كان يتتبع الأحداث التي تقع في البلاد العربية وفي طليعتها مصر، زعيمة البلدان العربية دون منازع، ولذلك كانوا يدعونه (بزغلول) تشبيهاً بسعد زغلول باشا زعيم مصر الفذ. ولكنني عندما انغمرت في ميدان الكفاح الوطني ابتداءً من 1930 وإثر صدور الظهير البربري لم أجد عبد الرحمان حجي موجوداً في الميدان، مع أخويه الشقيقين : عبد الكريم والسعيد.

وطوال فترة كفاحنا المستميت، دفاعاً عن كيان بلادنا وعن عقيدتنا، ومطالبة بالإصلاحات التي تنهض ببلادنا، وتوصلنا إلى حياة الحرية والكرامة، ثم مطالبتنا بالاستقلال التام سنة 1944، لم يكن يشاركنا في أي عمل سياسي، ولم ينخرط - حسب علمي - في أية حركة من الحركات السياسية، ولعله بعد التجارب التي مرت عليه في حياته، قرر أن يحصر مهمته، وأن يخدم بلاده عن طريق التعليم والثقيف، وتكوين الأجيال، والنضال الحاد في سبيل إعزاز اللغة العربية، التي كان يعتبرها أشرف اللغات.

لقد بقي رحمه الله منافحا عن لغة القرآن، طوال حياته، مجاهدا في سبيل
 إعزازها وصيانتها من الدخيل، مهاجما الخطائين فيها، رافضا الرفض القاطع لغة
 الجرائد التي لا تلتزم بقواعد، ولا تخضع لأصول، مهتما كل الاهتمام بشعر
 البلغاء، ناظما القصائد الطويلة، والمقطعات الشعرية، حسب الظروف التي كان
 يعيشها، معالجا بعض المواضيع الاجتماعية والثقافية والإخوانية وحتى المجونية
 في أطوار حياته الأولى يقول في مقطعة عنوانها : دفاعا عن اللغة العربية :

لغة العرب منتهأها ابتداء إن تصن دوما لا يصبها اعتداء
 ومن الصون طرد كل جهول عن حماها به يكون اقتداء
 ولجهل أخرى بها من فساد بنعيق يدعو إليه احتداء
 فعساها تلقى الهدى في سراها وعلينا منها يطول اجتداء
 وكفانا بها فخارا وعزا أن غلا في تشيدها الافتداء
 ويقول في قصيدة أخرى عنوانها : العربية منار ساطع :

لاح من بينها كمثل منار ساطع شع من ظلام مهيب
 عم من نوره ضياء المعالي فسرينا في إثره بالخبيب
 لاقتفاء الهدى ومحو ضلال رغم أنف العدى وكيد الرقيب
 قل لمن يقتفي السراب ضلالا ها هنا منبع الزلال الشريب
 قل لمن يبتغي الشراب حلالا ها هنا خمرة العتيق السكوب
 ليس فيها إثم ولا خوف عار أو خمار يفضي لنطق معيب
 بل لديها كل المحاسن تبدو تسلب اللب جهرة دون حوب
 يا ضلال العداة عما لديها من معان تهفو بلب الأريب

لو تنشقتم من شذاها أريحا لا غنتيم عن كل نفح عجيب
 فلها منها نشوة لاتضاهى ولها منها نفحة ذات طيب
 وبها تهتز النوادي انتشاء وإليها تهفو جميع القلوب
 ولها سحر رائع واقتدار فائق لاحتواء كل غريب
 تلك أم البيان لفظا ومعنى ومجازا لكل قصد رغب
 إلى أن يقول :

يا بني المصطفى الكريم خذوها باعتزاز وقوة ودؤوب
 فلنا فيها عزة وفخار وحصون من كل هجو معيب
 أنا لا أنكر ازدياد لغات إذ بها ندري كل شأن مريب
 وبها يمكن التعارف فيما بيننا قد يجري وبين الغريب
 غير أنني مما يسوء شعوري هجر أم وما لها من ضريب
 ولها فينا نعمة وعلينا حق فضل الرضاع والتريب
 إذ غدتنا من ثديها بلبان فلهما شكرنا مع الترحيب
 أوقد ننسى مالها من حقوق طوقتنا بها مع التهذيب
 قد أخذنا الايمان عنها ارتواء وركبنا العرفان بالتعريب
 وتلوننا القرآن في كل حين وبها شمنا ما به من عجيب
 كيف نغضي عنها وقد أنقذتنا في الدياجي من هوة التحنيب
 صنعت منا أمة ذات نهج مستقيم وهمة في شوب
 يوم كان الايمان أقوى دليل في سبيل الهدى وأعلى نصيب
 إلى آخر القصيدة.

وإن المطلع على ما نشر من شعره مؤخرا، يلاحظ أنه متنوع، ومتعدد القوة والضعف، ففيه الاخوانيات والاجتماعيات، وفيه الاستنهاضات والمدائح، وفيه النصائح والمواعظ، وفيه الهجو والعتاب، وفيه المحجون والخمريات إلى غير ذلك من المواضيع التي طرقها في شعره، والتي يحسن أن تدرس وتحلل كشعر يعبر عن شخصية صاحبه، وسأختم كلمتي هذه بإثبات بعض قطعه الشعرية في بعض المجالات التي عبر فيها عن شاعريته القوية، وتفوقه في الوصف وغيره.

لقد عاش حياته كلها شاعرا أدبيا لغويا في حال صحته، وحتى عندما أصيب بمرض السكري، الذي أصابه في آخر حياته، فالزمه الفراش المدة الطويلة وعاقه عن التحرك كما يريد، وطبق ما يريد، بقي يقرأ الشعر ويقرضه، ويطلق الأبواب المختلفة فيه، ولكنه على ما يظهر، أثر المرض عليه، فصار ينظر إلى الحياة وإلى الأصدقاء وإلى طلبته وتلامذته بالخصوص، نظرات جديدة وبحكم عليهم أحكاما تعبر عن المرارة والألم الذي كان يحس به، خصوصا عند ما رأى أن الكثيرين من الذين كانوا يتصلون به، قلت أو انعدمت زيارتهم له للتخفيف عنه مواساته، فعاتبهم قائلا من جملة ما قال :

خدمت العلم والتعليم دهرا	فكان نتيحتي فقرا وضرا
وكم لي من تلامذة تولوا	مناصب رفعة جاها وقدرا
فما ذكروا معلمهم بخير	ولكن بدلوا ذا الخير شرا
وذا شأن الورى قدما ومن ذا	تحول طبعه وقد استقرا
لذلك قلما تلقى لديهم	وفاء أو ثباتا مستمرا
فعروة ودهم ذات انفصام	وحبل وصالهم لن تستمرا
وغاية قصدهم جلب انتفاع	ولو سام الورى إذا وإمرا

إن من يعرف عبد الرحمن حجي، يعلم أنه كان شديد الانفعال لما لا يروقه ولا يعجبه، غير مخف سخطه وعدم رضاه، ولربما عبر عن عدم رضاه حتى بالكلمات الشديدة ويظهر أن المرض الذي أصابه زاد في انفعاله وتأثيره، فلجأ إلى الشعر يخفف به عن ألمه وبلواه، ويعتبر عما كان يحس به من ألم من جهة، ومن غربة من جهة أخرى كانت تضاعف من ألمه، وتزيد في حسرته.

وبالمناسبة أود أن أثبت هنا رسالة تلقيتها مؤخراً من ولده الدكتور عبد الغفور حجي، وجدها ضمن أوراق والده، وهي موجهة إليّ، وإن كنت لما أتذكر أنها وصلتني منه، أو اطلعت عليها من قبل، وها نصها بالحرف :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله،

الأخ الأجل، الزعيم الأمثل الشريف الأستاذ سيدي أبا بكر القادري، دامت لكم العناية وحفت بكم الرعاية، وسلام تام على أخوتكم ورحمة الله.

أما بعد، فقد تشرفت بورود استدعائكم للحضور في الحفلة التي ستقيمونها بمدرسة النهضة، تخليداً لذكرى وفاة جلالة المغفور له، سيدنا ومولانا محمد الخامس، نغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته.

وقد وجدني الحال، أنشأت قصيدة منذ أسبوع في نفس الموضوع، وها هي ذي أقدمها بين يديكم، وعساها تحظى لديكم بالقبول، فتلقى نيابة عن أخيكم الذي هو قعيد بيته، ملازماً للفراش، منذ مدة تناهز السنتين، وهو بهذه المناسبة المؤلمة يعاتبكم عتاب أخ لأخيه، لانقطاعكم عن زيارته، بل عيادته المرة بعد المرة، ولا يخفى على أخوتكم ما في ذلك من إدخال السرور، ومزيد

التسلية، على المريض العاجز عن الحركة إلا بميعن، والله يحفظكم ويرعاكم،
ويقيكم منارا للنهضة، ونورا للهداية الصادقة والاخلاص في الأعمال الصالحة،
التي تعود على الأمة بكل خير وصلاح، وهدى ونجاح والسلام.

في يوم الجمعة 22 ربيع الأول من عام 1385 هـ الموافق 24 غشت من
سنة 1962م

أخوكم : عبد الرحمن حجّي وفقه الله

إن هذه الرسالة تفيض بروح الأخوة الصادقة، وكم أسفت لأنني لم أتوصل
بها في حياة الفقيد الشاعر، حتى أبادر إلى زيارته والتخفيف عنه ومؤانسته،
والدعاء له بالشفاء، ولكني الآن أعتنم هذه الفرصة، فأدعو الله تعالى أن يتغمده
بالرحمة، ويسكنه في جوار الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك
رفيقا. وأن يتقبل دعواته، ويحقق رجاءه في ربه الذي ناجاه شاكيا حاله قائلا :

رب إنني قد مسني الضر مسا	ولديك الشفاء معني وحسا
وتوالت مصائبى وذنوبي	فتعاظمتها صباحا ومسي
شغلتنى جرائمي غير أني	لأرى حظ العفو أو في وأنسا
فإذا ما عفوت عني لفضل	مستحق له وعدلك أرسى
وإذا ما عفوت عني لفضل	منك أرجوه دائما لست أنسى
فتفضل يا ذا الغنى وتجاوز	عن مسيء لم يسن فضلك يأسا
فلديه تعلق ورجاء	مستمر فكيف يخشى ويخسا

وبعد، فمن يكون الشاعر عبد الرحمن حجّي ؟ إنه من سلالة الولي الصالح
المجاهد سيدي أحمد حجّي دفين حومة الصف من مدينة «سلا» الذي شارك

مشاركة عملية في تحرير مدينة المهديّة من قبضة المستعمرين الإسبانيين أيام دولة المولى إسماعيل، في أواخر القرن السابع عشر الميلادي.

ازداد شاعرنا في 16 ذي القعدة عام 1318 هـ الموافق ل 6 مارس 1901 م، وتولى يوم 29 أبريل سنة 1965 م وتلقى دراسته الأولى بمسقط رأسه مدينة «سلا» ثم انتقل وهو في سن الواحدة والعشرين إلى مدينة فاس، وانخرط في سلك طلبة القرويين، وصار يتلقى دروسه على جلة أساتذتها إذ ذاك، ولكن نزعتة الأدبية، جعلته يعطي الأهمية الأولى للأدب العربي، يقول عن نفسه :

(وأنا منذ نشأت، وأنا أميل إلى الأدب العربي، حتى صرفت فيه معظم أوقاتي وصار لدى من أعز ما أطلع) مكث بفاس ثلاث سنوات متلقيا دروسه كما ذكرنا على جلة العلماء أمثال الفقيه السيد محمد أقصبي والعلامة الأديب سيدي أحمد بن المامون البلغيثي والعلامة المصلح السيد بن العربي العلوي وغيرهم وبعد عودته إلى سلا بقي يتعاطى الدروس على علمائها وعلماء الرباط : أمثال الفقيه العلامة المشارك السيد أحمد الجريري والعلامة السيد أحمد بن عبد النبي والمحدث الشهير الشيخ أبي شعيب الدكالي، وهذا الأخير كان له التأثير الكبير على اتجاه وتكوينه وثقيفه، وكان معجبا به أكبر الإعجاب، ملازما لدروسه، مستفيدا كل الاستفادة من مختلف علومه، سواء منها الحديثية أو غيرها، ونراه فيما كتبه عن شيخه هذا، يكاد يجعله المعلم الأساسي والأول له، وقال فيه عدة أشعار، من جملتها القصيدة التي ألفاها أمامه بمناسبة ختمه لكتاب التلخيص، والتي استهلها بقوله : (أيها الشيخ الإمام، إني بكل إجلال واحترام، أستمحك أن تأذنوا لي أن ألقى على مسامعكم مع مزيد الخجل، كلمة بمناسبة هذه السلسلة الذهبية، والعقود الجمانية، التي طوqتم بها أفكارنا، اعترافا لكم بالجميل، فإن عثرتم على

حسنة، فمنكم وإليكم، إذ من بحاركم استقيت، ومن أسواقكم اقتنيت، ومن أريجكم استنشقت، ومن ضيائكم اقتبست :

يامريد، شمس النهي ذا شعيب فلك بالعلوم دارت رحاه
ذو مقام في العلم تعجز عنه همة البالغين أعلى علاه
ناصر الدين بالبراهين علما خاذل كل شبهة بحجاه
لا لأقول الوزير، كلا ولكن وزرا للطلاب أسمة فناه
حسبه العلم رفعة وجلالا أو هل يرتضي مقام وراه

شعره : لا أود أن أتحدث عن شعره بالتقويم أو النقد، وتتبع الأغراض التي كان يتوخاها من شعره في مختلف المواضيع التي عالجه في مقاصده أو مقطعاته، والتي جمعها أساتذة كرام في ديوانه المطبوع مؤخرا، لأن ذلك يتطلب دراسة متأنية طويلة من ذوي الاختصاص الذين لا أود أن أتطفل عليهم، ولكني مع ذلك كله، أشير إلى شعره الوارد في ديوانه وفي كتابه «الأدب العربي في المغرب الأقصى» لمؤلفه المرحوم محمد بن العباس القباج، يثبت أنه عالج كثيرا من الأغراض سواء في المجال السياسي والوطني والإصلاحي، وقد أتيت بنماذج منه في هذه الكلمة، أو في مجال الغزل أو التغني بحمال الطبيعة، أو في مجال التشبيب والمدح والهجاء، كهجوه لمدينة لندن، ومقامه بها والذي أتيت بعده أبيات مختارة من القصيدة العصماء التي نظمها أثناء مقامه بلندن.

وفي تنوع شعره، وتعدد أغراضه، أشار بقوله :

أجول بفكرتي بين القوافي وأسبح في بحور الشعر ليلا
وأدخل كل روض للمعاني وأخذ ما حلا أو كان جزلا
وأكرع من حياض السحر شعرا أرود فأرتوي نهلا وعلا
فجئت بما ترى شعرا فصيحاً رقيقاً رنح الأعطاف سيلا

لقد كانت له جولات في ميدان الغزل، أتى فيها بغرر شعرية، تؤكد
شاعريته الرقيقة :

وفتى موقد الحجي ألمعي له بالحسن خبرة وذكاء
بينما يلقي نظرة ذات يوم إذ رمته بسهمها هيفاء
فغدا ينطوي على جمر وجد سعرتة خدودها الحمراء
وفي قطعة شعرية جعل عنوانها : «مجلس أنس بإفران» قال :

وفتية قد أطاعوا اللهو والطربا فاستجمعوا الآتين الفن والأدبا
قد طاف من حولهم طير الهوى فرحا وحلق الحسن فوقهم فوا طربا
فألف الحسن منهم روضة أنفا بكل وجه صبيح يطرد الكربا
دعاهم الشوق والصهباء مغرية لكي ينالوا من الصباية الأربا
وقال في قطعة أخرى تحت عنوان «لذة الصب» :

لذة الصب في أليم العذاب واحترق الحشا وطول انتحاب
ليس في الحب نصرة لغريم تيمته عيون خود كعاب
كلما حاول الفرار رمته من عيون المها سهام العذاب
إن وجدي يفوق صبوة قيس ففؤادي ومهجتي في التهاب
وحيني وزفرتي ودموعي في ازدياد ووقدة وانصباب
ليتني مت في الغرام كثيبا ليس صبا من لم يمت باكتئاب
ما أنا إلا مغرم ذو هيام قد طرقت الغرام من كل باب
فأرى في الهوى سبيل رشادي وضلالي بالوجد عين الصواب
وسروري وقت اضطر جاعي لرئم وارتياحي في رشف راح الرضاب
وضيائي من لامعات الشايات وظلامي من حالك كالغراب

وفي قصيدة قالها في مליح حسب تعبيره :

أمر الوجد أن أطيع يهودي مذ شربت الغرام من كل مشرب
 ما رأيت مني العين قده إلا ذهب القلب في الهوى كل مذهب
 قد سباني ببهجة وفتور واحرار ووجنة تتلهب
 أكمل الله خلقه إذ براه مثل شكل الدمى بخد مذهب
 فلك الملك يا يهودي فاحكم فعلى قلبي الهوى قد تغلب
 إلى آخر القصيدة الطريفة

وفي مجال وصف الطبيعة كان مما قال :

حي الرياض فهذه الأشجار عند الربيع ترى لها أسرار
 هب النسيم مبشرا بقدومه فتسلسلت بهبوبة الأنهار
 وتناولت أغصانها كأس الندى لما بكت بدموعها الأشجار
 وتبسمت أزهارها فاعجب لذا لولا الندى لم تضحك الأزهار
 وإذا الطيور شدت على أفنانها تصغي لها الأسماع والأبصار
 فتظل تتلو حمدها لحفيظها ولدي الأصيل تضمها أوكار
 تلك الطبيعة قد نمت أسرارها لكن لها دون الورى أستار
 فكأنها عذراء حلت خدرها ولطالما تاقت لها الأفكار
 وإذا المدام تفجرت أنهارها وترنمت بصفاتها الأوتار
 وتنسقت بسقاتها أفراحها تسعى لها الفجار والأبرار
 أو ما ترى جيش المسرة فاتحا ولخ جميع ذوي النهى أنصار
 وإذا السرور تكاملت أجناده نكصت على أعقابها الأكدار

وشاعرنا عبد الرحمن حجي، له رأي في النساء لا يدعوهم إلى الارتياح،
 فهو يقول :

لا يطيع النساء في كل أمر غير ذي لوثة ونقصان فكر
 فإذا ما أبدين رأيا فخذ منه بنزر كقدر ملح لقدر
 ضل من خالهن مقتدرات في سوى زينة وحيض وطهر
 هن في شغل شاغل بقشور وملاه وغيبة طول دهر
 وعلى إعجاب بثوب جديد ذي تهاويل بين صفر وحمـر
 ومساحيق غبرة ودهان وافتان بطرة وبشعر
 ذلكم شغلن في كل حين ليس يتركه ولو قيد شبر
 إلى آخر القصيدة.

وبعد، فاسمحوا لي إن أنا لم أستوف الشاعر حجي في ديوانه ما يستحقه من دراسة وتمحيص، واكتفوا مني بهذه النماذج الشعرية التي ختمت بها كلمتي عنه، والتي أدعو بمناسبتها الأدباء الألمعيين، والناقدين الجادين، إلى إلقاء الأضواء على شاعرية هذا الشاعر الذي سمعت من بعض الإخوة الحاضر-ين أنه أهدى ديوانه الشعري إلى جلالة الملك المنعم سيدي محمد الخامس مع أننا لم نعرف عن ذلك شيئاً، فعسى أن يعثر الباحثون عن هذا الديوان الأصلي ليتم الحكم عن شاعرية هذا الشاعر.

